النظرية السردية الغريماسية بين التنظير والإجراء

– دراسة سيميائية–

د. وداد بن عافية
Wbenafia@gmail.com
قسم اللغة العربية
جامعة باتنة

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى التعريف بالنظرية السردية "لألجيرداس جوليان غريماس" (A. J. Greimas)، باعتبارها نموذجا شاملا لكيفية اشتغال الدلالة وتبنيها ليس في الخطاب السردي: الأسطوري، الملحمي، المسرحي، الروائي، بل على مستوى الأنساق العلاماتية المتنوعة: الإشهار، الخطاب السياسي، النصوص القانونية، الصورة، الظواهر الاجتماعية، معتمدا في ذلك على الإرث اللساني والشكلاني.

وقد توصلت الدراسة إلى استقصاء أهم الأفكار السيميولوجية والتعريف بأبرز المصطلحات الإجرائية والمفاهيم الغريماسية: المربع السميائي، المسار التوليدي، الترسيمة العاملية، الخطاطة السردية، البرنامج السردي، مع الخروج بهذه المصطلحات من حيزها النظري، إلى الحقل الإجرائي، باستثمارها في مقاربة نموذج سردي هو: "ذرات الرمل التي تقرع الطبول" للروائي الليبي "إبراهيم الكوني" من مجموعتـــه القصصية "جرعـــة من دم".

Résumé:

Cet article à comme objectif l'identification de la théorie narrative de l'auteur A. J. GREIMAS, en la considérant comme un exemple parfait expliquant le fonctionnement de la sémiotique non seulement dans le discours narrative, mythique, épique, théâtrale et romancier, mais aussi aux différents niveaux sémiologiques: publicité, discours politique, textes juridiques, image, et phénomènes sociaux, en se basant sur le patrimoine linguistique et formaliste.

Cette étude a détermine les déférentes idées sémiologiques de Greimas implicites dans ses œuvres en identifiant les termes exécutives les plus remarquables et les notions Greimassique: Le carre sémiotique, le schéma actantiel, le parcours génératif, Le schéma narratif, le programme narratif. Avec la sorti de ces termes de leur espace théorique vers le champ exécutif en l'exploitant le rapprochement de l'exemple narratif:« les graines de sable qui battent les tambours. Le romancier libyen (Ibrahim ElKawni) extraites de sa collection «Dose de sang».

مقدمة:

يعتبر "المعنى" قطب الرحى الذي تدور حوله الدراسات السيميائية التي تهتم بكيفية اشتغال الدلالة وتولدها عبر الأنساق العلاماتية المتنوعة. وقد خصص "غريماس" كتابه "في المعنى للاستقصاء عن كيفية إنتاج الدلالة وتداولها عبر سيرورة تدليلية قائمة على أساس من العلاقات الناشئة بين العناصر النصية، مستندا على إرث معرفي لساني وشكلاني في صياغة الشكل النهائي لنظريته السردية.

يعد المربع السميائي نموذجا عاما لكيفية تولد الدلالات عبر سلسلة من العلاقات، ويتم الانتقال منه باعتباره نموذجا مجردا يمكن أن يستوعب عددا لا نهائيا من الأشكال التعبيرية إلى الخطاب المشخص، عبر مجموعة من العمليات التي تتم على مستوى المسار التوليدي الذي يقترحه "غريماس،" للانتقال من المحايثة إلى التجلي، لذا تعتبر السيميائيات السردية لـــ"غريماس" من أنجع الطرق لمقاربة النصوص الأدبية واستقصاء كيفية إنتاج الدلالة وتداولها، من خلال المصطلحات الإجرائية التي يقترحها.

مشكلة الدراسة:

تتمحور القضية الأساسية لهذه الدراسة في التعريف بالسيرورة السميوزيسية التي يتم عبرها تشكل دلالة النصوص السردية، مع استكناه تفاصيل البنية السردية في النظرية السيميائية والاستقصاء عن كيفية تبنين المعنى داخل الخطاب، وعن أهم الأدوات الإجرائية الغريماسية المستعملة في فك علامات النص المشفرة، باعتباره مجرة سيميائية قابلة للتفجير والتأويل الدلالي. وهو ما يمكن إيجازه في مجموعة من الأسئلة:

كيف يمكن الانتقال من المستوى التكويني المجرد، إلى مستوى الخطاب المشخص عبر مجموعة من العمليات التحويلية؟

ما هو دور البنيات العاملية في توزيع الأدوار الثيمية على الفواعل، وتحديد الاتجاه الايديولوجي للخطاب؟

ما هي الأدوات الإجرائية الغريماسية في مقاربة النصوص السردية؟

أولا، المربع السيميائي:

ويسميه "غريماس" النموذج التكويني وهو محاولة لعقلنة المعنى، إذ يعتبر نموذجا عاما لشكلنة المعنى وكيفية توليد الدلالات عبر سلسلة من العلاقات التقابلية المدركة في شكل ثنائيات تلخص القيم المتواجدة في أشكال تعبيرية مختلفة.

من المقولات المركزية التي انبنى عليها تصور "غريماس" في صياغة النموذج التكويني تمييزه بين الدلالة السطحية (المكون الخطابي) والدلالة العميقة (النموذج التكويني، المكون السردي) للنصوص، وأن المعنى لا يتحقق إلا بالجمع بينهما.

1. المستوى السطحي:

يشتمل على تركيب سردي ودلالة سردية، ويرتبط بظاهر النص أو الخطاب القصصي "فالخطاب مرتبط وثيق الارتباط باللغة وما اللغة إلا جملة من القواعد النحوية والصرفية التي تمثل القاسم المشترك بين المتكلمين في مجتمع ما".[1] إنه مستوى التجلي اللساني.

2. المستوى العميق:

هو البنية الدلالية المنطقية المولدة للنص السردي، والسابقة له، تتأسس على جملة من العلاقات الخلافية. « ويشكل جذرا مشتركا تكون السردية داخله منظمة بشكل سابق عن تمظهرها من خلال هذه المادة التعبيرية أو تلك».[2] ويشتمل على مكونين: تركيب أصولي ودلالة أصولية.

وللانتقال من البنية الدلالية المنطقية المتمثلة في النموذج التكويني إلى النص السردي يقترح "غريماس" مسارا توليديا يتم فيه الانتقال بين المستويين السطحي والعميق.

---

[1] – سمير المرزوقي، جميل شاكر، **مدخل إلى نظرية القصة**، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د ت)، ص. 114.

[2] – سعيد بنكراد، **مدخل إلى السيميائية السردية**، ط.2، (الجزائر: منشورات الاختلاف، 2003)، ص. 31، نقلا عن:.NEF (Frederic) : structure élémentaire de la signification ouv. Coll. P : 20.

يمثل النموذج التكويني الصيغة الأولية لتشكل الدلالة من خلال مجموعة من العلاقات، فلا وجود للشيء إلا إذا تناقض مع شيء أخر، ومن ثم فإن تنظيم المضامين يتأتي من وجود محور دلالي يضم الحد ونقيضه:

يفهم من وصف "غريماس" لهذا البنية الدلالة البسيطة بأنها ذات طابع لازمني، إن "اللازمنية المميزة لهذه البنية يجب أن تفهم بمعنى قابليتها للتحقق في أشكال خطابية بالغة التنوع."[1]

كما يمكن لهذه البنية الدلالية أن تستوعب عددا لانهائيا من العناصر المشخصة: زمان، مكان، شخصيات، المولدة للنص السردي، ليتم الانتقال من النموذج التكويني إلى الخطاب السردي المشخص مرورا بالنموذج العاملي، كما سيأتي.

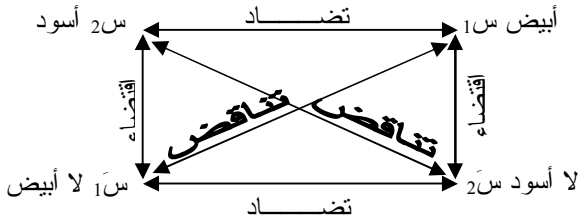

ثانيا، المسار التوليدي:

يقترح "غريماس" ثلاثة مستويات داخل المسار التوليدي الذي يحقق الانتقال من المحايثة إلى التجلي، بمعنى الانتقال من البنية الدلالية المنطقية للنموذج التكويني إلى النص السردي المشخص، وكل مستوى من هذه المستويات يشتمل على مكونين أساسين هما: المكون الدلالي والمكون التركيبي (النحوي).

المستوى الأول: يميز فيه "غريماس" بين الدلالة الأصولية والنحو الأصولي:

1- الدلالة الأصولية:

ترتبط بالبنية البسيطة للدلالة وبشروط استقصاء المعنى "يجب تصورها كتصور منطقي لتضاد عنصرين يمثل كل منهما نواة دلالية إذ يمكن لكل منهما أن يرتبط بعنصر آخر يكون مناقضا له relation de contradiction. كما تكون لكل

[1] – المرجع نفسه، ص.35.

عنصر من الزوج المتضاد علاقة استتباعية* Relation d'implication مع نقيض العنصر المضاد الثاني."[1]

استغل "غريماس" مبدأ المحايثة اللساني في صياغة نموذجه التكويني، "فالمعنى منظم في النص، تتحكم فيه عناصر داخلية ليست جامدة أو قارة بل هي تتحرك وتتغير في إطار النص كهيكل، وهي تتفرع ضمن أقطاب دلالية (Isotopies) متداخلة ومتقابلة."[2]

يحدث الاستقطاب الدلالي حول نواة دلالية (sème) لا يتحقق وجودها إلا في علاقتها مع عنصر خلافي آخر، ولا يمكن أن تدرك السيمات أو تفهم إلا من خلال اللكسمات (Lexème) التي تحقق التفكيك الدلالي باعتبارها مفردات مركبة، تتكون من جملة المعاني البسيطة أو الأصولية. وعلى سبيل المثال: يتمفصل المحور الدلالي "الأمن" إلى سيمين متضادين: الحرب ≠ السلم، وهما لا يدركان إلا من خلال التفكيك الدلالي الذي تصنعه اللكسيمات على النحو التالي:

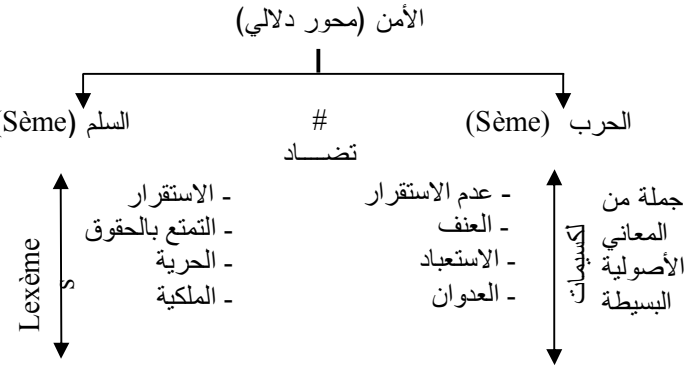

يحيل كل واحد من هذين السيمين على نقيضه:

الحرب ← لا حرب، السلم ← لا سلم

وعلى هذا الأساس تتبنى الدلالة الأصولية وفق نظام من العلاقات الخلافية بالدرجة الأولى على النحو التالي:

---

* – المقصود بالعلاقة الاستتباعية هي العلاقة الاقتضائية.

[1] – المرزوقي، شاكر، مرجع سابق، ص. 12.

[2] – المرجع نفسه، ص. 118.

"من هنا، فإن السميائية – في استنادها إلى القواعد اللسانية – تسعي إلى بناء الدلالة من داخل النص، ومن مستويات محددة تحكمها مجموعة من العلاقات والعمليات ندركها بكل وضوح في الصعيد العميق."[1]

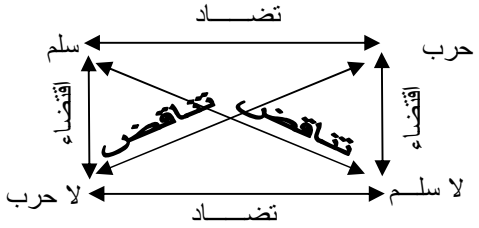

2- النحو الأصولي: يشتمل النحو عموما على عنصرين أساسين هما: علم الصرف (morphologie) وعلم التركيب (syntaxe).

يتسم علم الصرف بمقابلته بين الأشكال الصرفية في علاقات خلافية ثنائية، فالجمع لا يعرف إلا في علاقته بالمفرد، والمؤنث لا يعرف إلا في علاقته بالمذكر، وتترابط الصيغ المختلفة في شكل تراكيب جملية.

يحيلنا الصرف الأصولي – حسب "غريماس"– على« نمط الاشتغال التركيبي للنموذج التكويني، ذلك أنه لكي تكون للبنية الدلالية البسيطة القدرة على توليد سلسلة من الحالات المتقابلة فيما بينها يجب أن تستجيب لما يلي:

– أن تتشكل في مستوى محايث، أي بعيدا عن أي شكل من أشكال التمظهر.

– أن تملك طابعا خطابيا أي أن حجم الوحدات المكونة لها يجب أن تكون أكبر من الملفوظ».[2]

يسمح هذين الشرطين بالجمع بين المورفولوجي (البنية الشكلية البسيطة) والتركيبي (النحوي) عبر سلسلة من العمليات لتوليد أشكال خطابية متنوعة.

---

[1] – رشيد بن مالك، "الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السميائية"، **مجلة اللغة والأدب**، ع. 14، (الجزائر: دار الحكمة، 1999)، ص 97.

[2] – بنكراد، **مدخل إلى السميائية السردية**، ص.35 .

المستوى الثاني، التسريد:

كيف يمكن الانتقال من العلاقات التكوينية إلى الخطاب السردي عبر مجموعة من العمليات التحويلية؟

إن التسريد معناه تحويل المجرد إلى محسوس، وذلك بتحريك النموذج التكويني بتحويل العلاقات إلى عمليات، ويعتبر تدخل ذات الخطاب شرطا أساسيا، فعلى مستواه تتم عمليتي النفي والإثبات الخاصة بالمضامين، وهي أولى العلاقات التحويلية الممكن إنجازها حينها ستبدو العلاقات الثلاث: التضاد، التناقض، الاقتضاء، كتحولات وستعمل هذه التحولات على نفي مضمون ما، وإثبات آخر، وسيطلق "الانفصال" على تحول النفي، وسيطلق اسم "الاتصال" على تحول الإثبات. وبالنظر إلى هذه التحولات كعمليات، فسنكون حينها أمام الشروط الأولية للتسريد.[1]

لا يتحقق التسريد إلا بتوافر مستوى توسطي بين المحايثة والتجلي يمثل النشاط الإنساني مكثفا في ترسيمة ثابتة، مما "يسمح بالحديث عن النموذج العاملي باعتباره بؤرة تختصر وتكثف مجموع الأدوار القابلة للتحقق انطلاقا من كون دلالي مجرد. وهذه الأدوار هي تسنين لسلسلة من السلوكات وتثبيتها في أشكال عامة."[2]

تحتل البنيات العاملية مستوى توسطيا في المسار التوليدي بين النموذج التكويني والملفوظ السردي، وهي نتاج إسقاط العمليات على شكل فعل وفاعل: وظيفة وعامل.

فللانتقال من النحو الأصولي إلى مستوى الفعل السردي لا بد من توافر الفعل الإنساني، حتى وإن كان الفاعل حيوانا أو نباتا أو شيئا أو فكرة، الذي لا تستقيم اللغة والخطاب بدونه، فهو المعبر عن الحدث.

وعليه، فإن وجود الملفوظ السردي رهين بتوفر العنصرين الأساسين المكونين له وهما الوظيفة (و) والعوامل (∑). تتخذ العلاقة الوظيفية الشكل التالي: وظيفة (فاعل، موضوع)، ويمكن اختزالها على النحو التالي: و(ف، م).

---

[1] – المرجع نفسه، ص.37، Ricoeur (Paul) : **La grammaire narrative de Greimas.** P : 8.

[2] – سعيد بنكراد، **سيميولوجية الشخصيات السردية (رواية الشراع والعاصفة لحنامينة نموذجا)**، (عمان: دار مجدلاوي، 2003)، ص ص. 75– 76.

وعلى هذا الأساس "يمكن القول إن كل عملية داخل النحو الأصولي يمكن أن تنقلب إلى ملفوظ سردي يتحدد شكله في الصيغة التالية: و(ع)= وظيفة عامل."[1] وبهذا تصبح الجملة في النحو الأصولي باعتبارها ملفوظا سرديا، قادرة على توليد بنية الخطاب السردي.

أما العوامل (Les Actants) فهي "الكائنات والأشياء التي تسهم في الحدث بأية صفة أو طريقة كانت وحتى بوصفها تمثلا صامتا ولو بشكل أكثر سلبية."[2] إن التسريد لا يعني التحقق النصي المشخص، فهو لا يزال في المستوى المحايث (المستوى العميق)، وهو ما يتأتى عبر التحول (عملية قلب) الحادث في المستوى الثالث من المسار التوليدي.

المستوى الثالث: المستوى الخطابي

يعد أكثر المستويات تعقيدا، يتسم بالتجلي والمحسوسية ويشتمل على تركيب خطابي ودلالة خطابية.

1- التركيب الخطابي :

لا ينفصل عن النحو الأصولي والملفوظ السردي، فهو نتاج عملية قلب ثالثة لعناصر التركيب الأصولي، وذلك بصب موضوع التجربة المجردة داخل إطار زماني معين وفضاء مكاني تتجسد فيه الأحداث وهو ما لا يتأتى إلا بعملية تحويل تقود من العامل إلى الممثل، عبر توزيع أدوار ثيمية على الممثلين "فإذا كان التركيب العاملي هو الذي يحكم الممثلين، فإن هؤلاء الممثلين سيشكلون المحفل الحاسم الذي يعد ضمانة للربط بين التركيب والدلالة، بين الخطابي والسردي داخل المسار التوليدي."[3]

---

[1] – بنكراد، **مدخل إلى السميائية السردية**، ص.40.

[2] – بن مالك، "الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السميائية"، **مجلة اللغة والأدب**، ع. 14، ص.98، نقلا عن: J. Courtés, Analyse Sémiotique du discours, Paris, 1991, P: 77.

[3] – بنكراد، **سيميولوجية الشخصيات السردية**، ص. 79.
نقلا عن: Petitot cocorda, Jean : Morphogenèse du sens, P :255.

2- الدلالة الخطابية:

وفيها تحدث عملية قلب ثالثة من السيمات إلى الثيمات، ويطلق "غريماس" على هذه العملية الصورنة (figurativisation)، وفي هذا المستوى يتم الانتقال من الدلالة المفتوحة إلى الدلالة المحددة التي تنتمي إلى حقل دلالي معين، " فالبعد التصويري داخل خطاب معين يحدد طريقة خاصة في تناول قيم العالم أو هو يشكل ما يطلق عليه عادة رؤية للعالم. وهي طريقة تستند إلى الصورة التي يوفرها هذا العالم نفسه".[1]

يمكن توضيح عمليات القلب الحادثة في المسار التوليدي بمستوياته الثلاث، من خلال الملفوظ التالي: **كتب خليل عن الحرية.** إنه ملفوظ بسيط يمكن النظر إليه عبر عدة زوايا، هي:

أ- يعتبر نواة لتوليد عدد لا منتهي من الخطابات السردية، « إن أي اختيار هو في الوقت نفسه إقصاء لإمكانيات وتعيين لأخرى وهو في الوقت نفسه تحديد لتوجه إيديولوجي».[2]

ب- يمكن كتابته على الشكل التالي: م س= و(ع) ملفوظ سردي= وظيفة (عامل).

ج- تظهر البنية العاملية لهذا الملفوظ على الشكل التالي:

ذات ← خليل، موضوع ← الحرية، وظيفة ← الكتابة

د- ثمة إثبات لقضية الحرية، مما يعني بالضرورة نفيا للعبودية.

هـ- يمكن تحويل العوامل إلى ممثلين والوظائف إلى أفعال والسيمات (حرية/عبودية) إلى ثيمات "فهذه الثيمات التي تمثل على شكل أدوار ثيمية سيتم انتقاؤها من طرف التنظيم العاملي، يتكفل بها بعد ذلك الممثلون داخل الحكاية."[3] من خلال برنامج سردي معين:

---

[1] - المرجع نفسه، ص. 80.

[2] - بنكراد، **النص السردي نحو سميائيات للايديولوجيا**، ط1، (الرباط: دار الأمان، 1996)، ص. 68.

[3] - المرجع نفسه، ص. 93، نقلا عن:.Petitot cocorda , Jean : Morphogenèse du sens, P : 255

ذ ∩ م ـــــــــــ ذ U م

ثالثا، الترسيمية العاملية: هي نتاج عملية تحويل للعلاقات المشكلة للنموذج التكويني (ظهور العمليات من صلب العلاقات) في التصور الغريماسي، وإن كانت جذوره تعود إلى أعمال سابقة، أهمها التحليل المورفولوجي للحكاية الشعبية للباحث الروسي "فلادمير بروب" (Vladimir Propp).لقد لاحظ "غريماس" أن "بروب" توصل إلى مفهوم العوامل دون أن يضع لها نفس التسمية، وذلك حين لخص الوظائف الواحدة والثلاثين في ما سماه بدائرة الفعل، حيث ضم مجموعة من الوظائف المتشابهة إلى بعضها البعض لخلق، "دائرة فعل محددة لشخصية معينة، وانتهي إلى سبع شخصيات أساسية اعتبرها "غريماس" بمثابة عوامل، ذلك أن "بروب" نفسه،

مرسل ← موضوع ← مرسل إليه
↑
مساعد ← ذات ← معيق

اعتبر الشخصيات الرئيسية كبنية مجردة تحدد من أعلى جميع الإمكانات التي يفترض أن تعرفها الحكايات العجيبة على مستوى قيام الممثلين بالأعمال، وهذا ما جعل "غريماس" يقول: "إن العوامل تمتلك إذن قانونا "ميتالسانيا" (Metalinguistique) بالنسبة للممثلين، إنها تفترض بالإضافة إلى ذلك التحليل الوظيفي، أي التكوين التام لدوائر نشاطها.[1]

سعى "غريماس" منذ سنة 1966 إلى وضع نموذج شامل، قادر على احتواء مختلف أشكال النشاط الإنساني بما في ذلك النصوص الأدبية، وهو نموذج تحليلي يتكون من ستة عوامل تربطها ثلاث علاقات، يمثل البنية المجردة لكل إرسالية إنسانية، وبعبارة أخرى "إنه يمثل شكلا قانونيا لتنظيم النشاط الإنساني، أو هو النشاط الإنساني مكثفا في ترسيمة ثابتة رغم تغير عناصر تمظهرها."[2]

[1] – حميد لحمداني، **بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**، ط3. (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2000)، ص.33.
[2] – بنكراد، **مدخل إلى السميائية السردية**، ص. 43.

يعرف "غريماس" العامل بأنه "وحدة تركيبية ذات طابع شكلي، بغض النظر عن أي استغلال دلالي أو إديولوجي"[1] فكل عامل قابل لأن يدخل ضمن برنامج سردي معين، وأن يستوعب غنى وتنوع النصوص لطبيعته الشكلية المجردة. تتكون الترسيمية العاملية من ست وحدات دلالية تصنف ضمن ثلاث محاور:

1. **الذات/الموضوع:** ينتميان إلى محور الرغبة، وهما أكثر العوامل أهمية في النموذج العاملي، باعتبارهما عماد كل فعل إنساني، فالذات ترغب في موضوع ما، وعلى أساس هذه الرغبة تتحدد عمليتي النفي والإثبات (بالنسبة للموضوع). وهكذا نكون أمام ملفوظ سردي اتصالي يعبر عن انتقال الفاعل من حالة انفصال عن موضوع القيمة إلى حالة اتصال: ذ∩ م (ذات ∩ موضوع). أو أمام ملفوظ سردي انفصالي، يعبر عن انتقال الفاعل من وضعية اتصال بموضوع القيمة إلى وضعية انفصال: ذUم (ذات U موضوع).
2. **المرسل/المرسل إليه:** ينتميان إلى محور الإبلاغ، إن الرغبة في تحقيق موضوع ما يكون وراءها محرك أو دافع يسميه "غريماس" (المرسل)، وهو الذي يقوم بتحفيز الذات على القيام بموضوع ما لصالح المرسل إليه المستفيد منه.
3. **المساعد/المعيق:** ينتميان إلى محور الصراع، فالذات في سعيها إلى تحقيق رغبتها المتصلة بموضوع القيمة تصادف عوامل مساعدة وأخرى معيقة تحول بينها وبين الوصول إلى الهدف النهائي، ويسمى المعيق "الذات المضادة أو الضديدة".

تتسم البنية العاملية بالعمومية والتجريد، وتنزح إلى المحسوس بترجمتها إلى خطاب يتميز بممثلين وفضاء وزمان كوحدات خاصة به.

[1] – السعيد بوطاجين، **الاشتغال العاملي، دراسة سميائية، "غدا يوم جديد"** لابن هدوقة، عينة، (الجزائر :منشورات الاختلاف، 2000)، ص. 19، نقلا عن Sémiotique narrative et textuelle, P 162

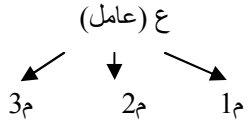

"إن الحديث عن الممثل هو الحديث عن السند المشخص الذي يشتغل كنقطة مغناطية تلتف حولها الأحداث".[1] وذلك بالانتقال من العامل كمقولة مجردة إلى الممثل كوحدة مشخصة. يشير "غريماس" في كتابه "في المعنى" إلى العلاقة الازدواجية بين العامل والممثل، فقد يتجلى العامل من خلال عدة ممثلين متعاضدين لتحقيق رغبة مشتركة:

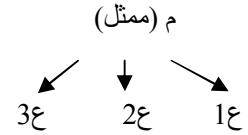

وبالموازاة يمكن للمثل الواحد أن يتقمص أدوار عاملية متعددة (مرسل، مساند، ذات) كما يمكن للممثل أن يمثل دور (الذات، المساند، المعارض):

يتنوع الممثلون بتعدد الخطابات، مما يعكس البعد الإيديولوجي والمرجعية الثقافية لكل نص سردي.

رابعا، الخطاطة السردية، البرنامج السردي كإجراء:

تجاوزت السيمياء دراسة الجملة اللسانية إلى دراسة الخطاب ككل، ودعا "غريماس" إلى الانطلاق من المقطوعة القصصية، لأن: "المقطوعة وحدة مستقلة عن وحدات الخطاب السردي قابلة للاشتغال كقصص، كما يمكن أن توجد مكملة كجزء من الأجزاء التي تشكله. ويحدد المكان الذي تحتله وظيفتها في التناسق العام للبنية السردية."[2] وعلى هذا الأساس تم تقسيم قصة "ذرات الرمل التي تقرع الطبول" إلى مقطعين رئيسيين هما بمثابة بؤر مركزية، على أساسهما حيكت

[1] – بنكراد، **مدخل إلى السميائية السردية**، ص. 84.
[2] – بوطاجين، مرجع سابق، ص.21، نقلا عن: Greimas; du sens , P . 253.

الأحداث ووزعت الأدوار داخل هذا العمل، ويمكن إيجاز موضوعيهما في الجملتين التاليتين:

1. جبور ومصباح سعيد ينويان نشر تحقيقات صحيفة عن الجنوب عند العودة إلى العاصمة.

2. مصباح سعيد ينوي فضح الملازم في الجرائد.

يتم الانتقال من المحايثة إلى التجلي مرورا بالمستوى السردي« باعتباره البؤرة الحاضنة للنموذج العاملي، يشتغل كمستوى توسطي في سيرورة إنتاج الدلالة، ذلك أن القلب هو الذي يسمح بالمرور من مستوى النحو الأصولي إلى مستوى التركيب العاملي المشخص».[1] وتأتي الخطاطة السردية بلحظاتها الأربع: التحريك، الأهلية، الإنجاز، الجزاء، كعنصر منظم للتحولات الحادثة داخل برنامج سردي معين.

تمثل الجملة الأولى قطب الرحى الذي تدور حوله دوال ومدلولات المقطع السردي الأول، الذي يحكمه برنامج سردي يتكون من ثلاث مراحل تتعلق بالذات والموضوع وهي:

أ- **الإمكان:** هي حالة سابقة عن اكتساب الأهلية، تنتمي إلى محور الرغبة المراد تحقيقها.

ب- التحيين: هو طريقة تجسيد هذه الرغبة، وهو ناتج عن الأهلية التي تتمتع بها الذات إزاء موضوع ما.

ج- التحقق: هنا يحدث اتصال بين الذات وموضوع القيمة (الانجاز).

وعليه يمكن إيجاز مسار الذات في علاقتها بالموضوع من خلال الترسمية التالية:

الإمكان ←التحيين ←التحقق

يتضح من الجملة النواة الأولى أن طبيعة العلاقة بين الذات والموضوع انفصالية (ذ U م)، فـ "جبور" وصديقه "مصباح سعيد" ينويان فضح الحقائق الموجودة في الحياة الصحراوية وما تكابده الأهالي من ضير من قبل السلطة، إلا أن تحقق هذه الرغبة لن يتأتى إلا بعودتهما إلى العاصمة، التي تعتبر الفضاء الذي

[1] - بنكراد، **سيميولوجية الشخصيات السردية**، ص. 83.

يمنحهما الأهلية لذلك، لذا كان لابد من العودة بعد أن قاما بجولة استطلاعية وتوعوية بين الأهالي: "نحن قادرون دائما على أن نفعل شيئا من أجل هؤلاء الأشقياء، إنهم قانعون ببؤسهم... مستسلمون لشقائهم كأنه قدر من عند الله. مهمتنا هي أن نجعلهم يؤمنون بأن ذلك الملازم الخبيث وحليفه ليسا سوى دميتين تصلحان للجلوس فوق الكراسي وكتابة التقارير المشبوهة إلى السلطات الملكية. من الصعب أن نحطم فيهم هذه القناعة... ولكن واجبنا أن نحاول."[1]

ومن ثم يمكن صياغة البرنامج السردي لهذه المقطوعة على النحو التالي:

الإمكان	←	التحيين	←	التحقق
نصرة الأهالي		نشر التحقيقات		سلبي
الصحراوية		الصحفية		

إن الانتهاء إلى نقطة سلبية له ما يبرره ايديولوجيا في القصة كما سيأتي، والذي يهمنا الآن هو كيفية تجسد هذا البرنامج السردي من خلال الخطاطة السردية عبر سلسلة من التحولات، وهو مالا يتأتى إلا بعد توزيع الأدوار على العوامل المختلفة.

المرسل	←	الموضوع	←	المرسل إليه
الحياة في الجنوب		الحقيقة الصحفية		الأهالي الصحراوية
		↑		
المساند	←	الذات	←	المعارض
مصباح سعيد		جبور		– السكر.
				– نفاذ البنزين.
				– نفاذ الماء.
				– الصحراء.
				– الأهالي الصحراوية.
				– الملازم (السلطة).
				– الموت.

"إن مقطعا للتعاقد يمكن أن يحدد استبداليا باعتباره يقيم علاقات شبه ثابتة ودائمة ما بين مجموعة من العوامل هناك مرسل يلقي بموضوع إلى المرسل إليه

[1] – إبراهيم الكوني، **ذرات الرمل التي تقرع الطبول، المجموعة القصصية الخروج الأول إلى وطن الرؤى السماوية** (بيروت: دار التنوير، 1992)، ص. 36.

(يتكون من رغبة من برنامج وإرادة في الفعل) ويحول المرسل إليه إلى ذات مالكة لرغبة وبرنامج للإنجاز."[1]

والذات هنا هي "جبور" لأنه يعي قضية الصحراء جيدا ويتبناها كوظيفة لا تنفصل عن مهنة الصحافة، ويبدو من خلال القصة كمشجع وكاشف للحقيقة أمام مصباح سعيد الذي يبدو أنه أقل وعيا بالحقيقة وذلك من خلال عبارته:

"الملازم رجل طيب.

تساءل جبور في لهجة استنكار:

– طيب؟

ثم بعد لحظة صمت:

– الطيب لا يقتل.

– يقتل؟

– طبعا. قتل وجرح في مظاهرات 64 [1964] وهو لم يغفر لي تنظيمي لهذه المظاهرات حتى اليوم... يحاول أن يظهر لي الودّ ولكن ذلك كله نفاق... مجرّد نفاق وخبث. وهو لا ينسى أنهم جردوه من نجمتين بسبب الجريمة... ويعتقد أنني ما زلت أمارس نشاطا سياسيا بين الأهالي، المصلحة أقوى من كل شيء كما ترى..."[2]

انطلاقا من تحديد البرنامج السردي والترسيمة العاملية للمقطع السردي الأول للقصة، يمكن الانتهاء إلى رصد خطاطته السردية بلحظاتها الأربع: التحريك، الأهلية، الإيجاز، الجزاء، باعتبار أن الأدوات الإجرائية التي وضعها "غريماس" تشتغل جنبا إلى جنب في مقاربة النسيج السردي وتحليله إلى خيوطه الأولى لإعادة غزله وتركيبه من جديد، لمعرفة كيفية تشكل الدلالة وتبينها داخل النص السردي.

---

[1] – فيليب هامون، **سميولوجية الشخصيات الروائية**، ترجمة: سعيد بنكراد، (الرباط: دار الكلام، 1990)، ص. 44.

[2] – القصة، ص. 36.

ومن ثم فإنه لا يمكن أن تدرس الخطاطة السردية بمنأى عن البرنامج السردي والترسيمة العاملية، وهو ما يتضح من خلال لحظاتها الأربع التي رصدها "غريماس" على النحو التالي:

- التحريك

ينتمي إلى مرحلة الإمكان أو الاحتمال، وهو مرحلة سردية سابقة للفعل الحدثي، إنه نوع من التعاقد بين الحافز والفاعل أو بين المرسل والذات، "يتضح التحريك بالفعل الذي يفعله المرسل في الفاعل، وهو فعل إقناعي بالدرجة الأولى، فيحمله على تبني مشروع معطى وتنفيذه مشيرا في ذلك إلى المعيقات التي قد تعترض سبيله و حلولها المتوقعة."[1] إنها لحظة الحسم الاديولوجي في خطوطها العريضة، قبل أن تشرع حركة السرد في توضيح معالمها.

ويتجلى التحريك في هذه القصة من خلال تبني "جبور" لقضية الأهالي الصحراوية المسحوقة من قبل السلطة الحاكمة، وهي في الحقيقة– قضية المؤلف نفسه– التي تجسدت من خلال هذه الشخصية.

- الأهلية

ثمة قبول لتبني قضية ما من طرف "الذات"، التي لابد أن تمتلك الأهلية أو الكفاءة الضرورية لتحقيق رغبتها عبر الإنجاز، "إن الأهلية هي ما يدفع إلى الفعل أي كل المسبقات والمفترضات التي تجعل من الفعل ممكنا".[2]

عند هذه المرحلة يتم الانتقال من الاحتمال إلى التحيين، فبعد تبني ايديولوجية يسارية تتمثل في معارضة السلطة ومحاولة إنصاف الأهالي الصحراوية المظلومة، يسعى "جبور" إلى تحقيق موضوع القيمة الذي يعتبر أساس الفعل ومبرره الرئيسي من خلال نشر تحقيقات صحيفة، كما يهدف إلى تشجيع صديقه "مصباح سعيد" على القيام بذلك أيضا: "أرجو أن تكون قد عدت بتحقيقات

---

[1] – رشيد بن مالك، **البنية السردية في النظرية السميائية**، (الجزائر: دار الحكمة، 2001)، ص ص. 27– 28.

[2] – بنكراد، **مدخل إلى السميائيات السردية**، ص.59،
نقلا عن: Greimas Courtès : **Sictionnaire Article Manipulation**

صحفية طيبة عن الحياة في الجنوب. أعترف أنك أول صحفي يتعامل بجدية مع مهنة الصحافة في هذا البلد..."[1]

وعلى هذا الأساس يمكن تحديد صيغ الأهلية –حسب غريماس– في:

– وجوب الفعل: "من الصعب أن نحطم فيهم هذه القناعة ولكن واجبنا أن نحاول."[2]

– معرفة الفعل: يدرك "جبور" جيدا القضية المحورية التي تشغله وبعدها الايديولوجي.

– قدرة الفعل: تفسح مهنة الصحافة مجال التعبير واسعا أمام "جبور" لنصرة الأهالي الصحراوية.

– إرادة الفعل: إن رغبة "جبور" في تبني القضية الصحراوية لا توازيها رغبة أخرى.

– **الإنجاز**

لا يمكن أن يتحقق الإنجاز بعيدا عن العلاقة التناقضية في النموذج التكويني، حيث تدخل الذوات في علاقة سجالية لتنتهي بنفي موضوع وإثبات آخر.

يتحقق الإنجاز عبر سلسلة من الملفوظات السردية المترابطة على النحو التالي:

"– م س = مواجهة: (ذ1 ⇔ ذ2).

– م س = هيمنة: (ذ1 ⇐ ذ2).

– م س = منح: (ذ1 ⇒ ذ2).

وتتطابق هذه الملفوظات مع ثلاث عمليات توجد في أساس النحو الأصولي، ففي الحالة الأولى يعتبر الملفوظ السردي، تشخيصا عن العلاقة التناقضية بين حدين، وفي الحالة الثانية، يعتبر هذا الملفوظ نقطة الانطلاق لعملية النفي الموجهة، حيث أن ذ1 ينفي ذ2 أو العكس، ويتطابق الملفوظ في الحالة الثالثة

[1] – القصة، ص. 35.
[2] – القصة، ص. ن.

مع محفل الإثبات الذي يتجلى في منح الذات موضوعا ما."[1] تتخذ القصة طابعا سجاليا بين ذاتين هما:

جبور ⇔ الملازم

ذ1 مواجهة ذ2

إلا أن الهيمنة في هذا النموذج جرت لصالح الذات الثانية:

ذ1 (جبور) ⇒ ذ2 (الملازم)

لقد تسبب الملازم في موت "جبور" عندما تأخر عن إنقاذه في الصحراء، بعد أن نفذ منه الماء والبنزين:" ... أنا لم أفعل سوى أني تأخرت... تأخرت قليلا... تعمدت ذلك... بضع ساعات، أو ربما نصف يوم، كانت كفيلة بحيث تتولى الصحراء بقية المهمة."[2] رغم تحقق عنصر "الأهلية" في "جبور" (ذ1) إلا أن الأمور سارت لصالح الملازم (ذ2)، وفي هذا التوجه السردي ما يسفر عن دلالات خفية، ويكشف عن البعد الايديولوجي للنص، وهو ما ورد على لسان الملازم: "معرفة الحقيقة في زماننا مبرر كاف جدا لنيل العقاب."[3]

وهو موضوع الإثبات الذي يتعلق بالملازم (ذ2)، فالأمور على ما يبدو لصالح السلطة وضد الحقيقة، فـ "اتصال الذات بموضوعها يعني إخفاق الأخرى، وتساعد هذه الخصوصية على التأكد من الطابع الجدالي لكل تحول سردي ولكل قصة."[4]

يمكن تلخيص مجموع العلاقات القائمة في القصة على النحو التالي:

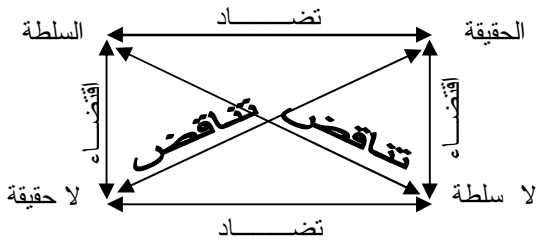

[1] – بنكراد، **مدخل إلى السميائيات السردية**، ص.63، نقلا عن: Greimas: **Du sens** P: 173.
[2] – القصة، ص. 49.
[3] – القصة، ص. 49.
[4] – بوطاجين، مرجع سابق، ص. 70.

- الجزاء:

تجبر "جبور" على السلطة، فكانت نهايته الموت المحقق، وهو واحد من الأسباب التي أدت إلى التحقق السلبي للبرنامج السردي، فقد اجتمعت جملة من العوامل المعارضة التي حالت دون عودته إلى العاصمة وإيصال الحقيقة من خلال النشر الصحفي، مما أدى إلى التحقق السلبي للبرنامج السردي، ومن جملة تلك العوامل: أنه كان سكرانا فضل الطريق في الصحراء، مما أدى إلى: نفاذ البنزين، نفاذ الماء، مما ساعد الملازم على استغلال الوضع والتأخر عن إنقاذه فمات عطشا وغرقا في إحدى الآبار، وهو ما ورد على لسان الملازم: "العطش، العطش أنساه أن لا فائدة إطلاقا من بلوغ البئر بلا ملابس، كان يستطيع أن يمزقها ويصنع منها "حبلا" يدليه في البئر ليمتص القماش المبتل- ولكنه قد تحرر من الملابس فواجه اختيارا قاسيا: إما أن يموت عطشا فوق البئر وهو يتفرج على الماء أو يموت غرقا في الماء... أقصد في البئر."[1]

وعليه، فإن "الترسيمة السردية تنمذج وفق الصورة التي توفرها الايديولوجيا باعتبارها تأويلا مسبقا للفعل الاجتماعي، وهذا الفعل يعبر عن حالات قيمية محددة".[2] فللنهاية السلبية في البرنامج السردي ما يبررها إيديولوجيا، وهو ما أورده المؤلف على لسان مصباح سعيد: "الأبرياء يموتون دائما... ويبقى قطاع الطرق... أتفهمني يا ملازم."[3]

إن الإشعاع الدلالي لاسم "مصباح سعيد" يجعلنا نستشرف المستقبل المضيء والسعيد، الذي نتلمسه من خلال النواة الدلالية التي تمثلها الجملة المركزية للمقطع الثاني:

- مصباح سعيد ينوي فضح الملازم في الجرائد.

لم يتحقق الاتصال بين الذات والموضوع وفق البرنامج السردي للمقطع الأول، مما يمكن الذات من العودة "إلى مرحلة الإمكان، ويحينها من جديد أي انفصال قسري، وهكذا لسنا أمام ثلاثة أنماط للوجود السميائي لموضوعات القيمة،

---

[1] - نفسه، ص. 44.
[2] - بنكراد، **نحو سميائيات للإيديولوجيا**، ص.91.
[3] - القصة، ص. 45.

مطابقة للمسار العام للذات ومحددة له: موضوع ممكن ← موضوع محين ← موضوع محقق.

وإنما أيضا أمام تطورات ممكنة يكون فيها الإنجاز نقطة الارتكاز، بحيث أن كل تنازل سيؤدي إلى إطالة الخطاطة السردية، كما أن أي حرمان من الموضوعات يصلح لأن يكون لحظة سردية تنطلق منها مسارات جديدة."[1]

فموت "جبور" دافع كاف لتولد برنامج سردي جديد، يحكمه البرنامج الأصلي للنص السردي، ويصب في نفس موضوع القيمة المتمثل في كشف الحقيقة وخبايا السلطة عبر التحقيق الصحفي، وهو ما يتضح من خلال البرنامج السردي للمقطع الثاني:

الإمكان	←	التحيين	←	التحقق
فضح الملازم		النشر الصحفي		الإيجاب

الواضح أن البرنامج السردي سار نحو الإيجاب حسب التأويل الاستشرافي للمقطع الأخير من القصة الذي يتضمن هذا المعنى:

"بعد قليل كانت الطائرة تحلق عبر الهواء، فوق الرمال الصفراء، حاول أن ينسى كل شيء... كل شيء... ولكن قرع الطبول ما لبث أن ضج في أذنيه ليعلو على هدير محركات الكارافيل السابحة في الفضاء."[2]

إن الضمير الحي وواجب الصحافة في كشف الحقيقة يحول دون إخمادها في نفس "مصباح سعيد"، الذي غادر إلى العاصمة ليقرع طبل الحقيقة ويسمعه الجميع، رغم ما تهدد به السلطة كاشفي الحقيقة من جهة، ورغم سلبية الأهالي الصحراوية المستسلمة للظلم المستبد بها من جهة أخرى، وهو ما جاء على لسان الملازم مخاطبا "مصباح سعيد" عندما شيعه مودعا: "لا تعتمد كثيرا على الأهالي."[3]

بالإمكان توزيع الأدوار على الوحدات الدلالية بالاعتماد على الترسيمة العاملية التي اقترحها "غريماس" في كتابه "الدلالة البنيوية" على الشكل التالي:

المرسل ← الموضوع ← المرسل إليه

---

[1] – بنكراد، **مدخل إلى السميائيات السردية**، ص.73، Greimas, **Les Acquis et les projets**, P 20

[2] – القصة، ص. 51.

[3] – القصة، ص. 51.

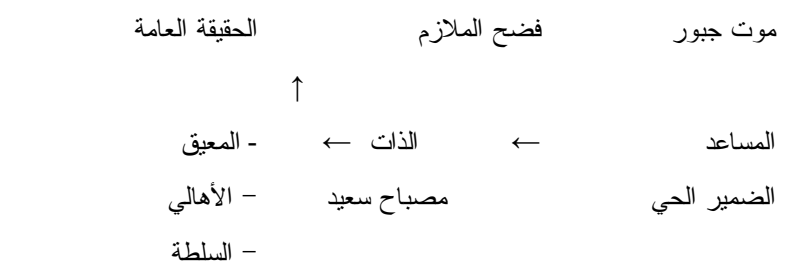

تبقى إشارة أخيرة يمكن ملاحظتها من خلال البرنامج السردي الأول والثاني في القصة والمتمثلة في علاقة الشخصيات كدوال بأدوارها الثيمية، إذ بإمكان أسماء "شفافة" "كجبور" و "مصباح سعيد" أن تشتغل كتكثيف لبرامج سردية تسبق وتصور بشكل قبلي قدر الشخصيات التي تحملها،[1] فكلاهما تبنى دورا ثيميا واحدا يرتبط بمهنة الصحافة المنوطة بكشف الحقيقة، إلا أن "جبور" إندفع وتجبر فمات، عكس "مصباح سعيد" الذي تريث وتردد لكنه شد العزم أخيرا على قرع الطبول.

خاتمة:

تمر عملية إنتاج النصوص السردية عبر سيرورة من العمليات التوليدية المتتالية، يشكل النموذج التكويني في مستواه المحايث نقطة انطلاقها الرئيسية، مرورا بالمستوى السردي الذي يشتمل على النموذج العاملي، كمرحلة توسطية في سيرورة إنتاج الدلالة، وصولا في محطة أخيرة إلى المستوى التشخيصي (الخطاب) عندما يتخذ النص السردي منحاه الايديولوجي الخاص به الذي يصب في قالب زماني وفضائي معين، مع تبني الشخصيات للأدوار الثيمية والعاملية الخاصة بها.

تعتبر سيمياء "غريماس" رغم ما يؤخذ عليها من تقصير في دراسة الشخصية السردية التي لا يقتصر بناؤها على الصياغة التجريدية العاملية، وما يعتريها من نقص في الإحاطة بمستويي الزمان والفضاء، من أنجع النظريات في مقاربة النص السردي، وإن كان القارئ سيجد في مقترحات "فيليب هامون" Philippe Hamon حول دراسة الشخصية التي لا تتناقض مع مقترحات "غريماس"، وفي نظرية جيرار جنيت G. Genette حول عنصري الزمان والفضاء، ما يسد النقص الذي تشكو منه النظرية الغريماسية في مد القارئ بالأدوات الإجرائية اللازمة في هذا المجال.

[1] – هامون، مرجع سابق، ص. 46.

بيبليوغرافيا:

01- الكوني، إبراهيم. **ذرات الرمل التي تقرع الطبول، المجموعة القصصية الخروج الأول إلى وطن الرؤى السماوية.** بيروت: دار التنوير.1992.

02- لحمداني، حميد. **بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي.** ط3، بيروت: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000.

03- بوطاجين، السعيد. **الاشتغال العاملي، دراسة سميائية، " غدا يوم جديد" لابن هدوقة، عينة.** الجزائر: منشورات الاختلاف، 2000.

04- بنكراد، سعيد. **مدخل إلى السيمائية السردية.** ط.2، الجزائر: منشورات الاختلاف، 2003.

05- بنكراد، سعيد. **النص السردي نحو سميائيات للايديولوجيا.** الرباط: دار الأمان، 1996.

06- بنكراد، سعيد. **سيمولوجية الشخصيات السردية (رواية الشراع والعاصفة لحنا مينة نموذجا).** عمان: دار مجدلاوي، 2003.

07- هامون، فيليب. **سميولوجية الشخصيات الروائية.** ترجمة سعيد بنكراد. د ط.: دار الكلام، الرباط، 1990

08- بن مالك، رشيد. "الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السميائية." **مجلة اللغة والأدب**، العدد 14، الجزائر: دار الحكمة، 1999.

09- بن مالك، رشيد. **البنية السردية في النظرية السميائية.** الجزائر: دار الحكمة، 2001.